

## آثار التكفير على الأمة ولأفراد .

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين ، وبعد

:

فإن التكفير حكم شرعي له شروطه وضوابطه الشرعية فيه العدل والخير للأمة والأفراد، فإذا اختلت الشروط والضوابط انقلب إلى الضد ، فيصبح حكماً ظالماً جائراً يفتح أبواباً من الشرور بل والآثار المدمرة للأمة والأفراد.

وسنبيّن في هذه الوريقات أهم آثار التكفير البدعي الظالم غير المنضبط بضوابط الشرع على الفرد والمجتمع .

### أولاً : آثاره على الفرد التكفيري:

التكفير ظلماً وعدواناً له آثار دينية ونفسية على المكفّر ومنها :

١ - إن التكفير بلا حقّ كبيرة من الكبائر يقع فيها صاحبها ، لقوله عليه الصلاة والسلام : (( أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما ))<sup>(١)</sup>، وفي رواية : ((ومن دعا رجلاً بالكفر، أو قال: عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه))<sup>(٢)</sup>.

فالمكفّر بالظلم والعدوان بدل أن يفعل معروفاً أتى كبيرة من الكبائر ، وبدل أن ينهى عن منكرٍ صار هو المرتكب للمنكر واستحق الوعيد الوارد في الحديث عن النبي ﷺ .

(١) أخرجه البخاري رقم (٦١٠٤) ومسلم رقم (٦٠) .

(٢) أخرجه مسلم رقم (٦١) .

٢- إن التكفير هو مذهب الخوارج ، والخوارج هم الذين جاء فيهم وصف الرسول ﷺ : (( يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية ))<sup>(١)</sup>. فإذا كان هذا وصفهم وحكمهم في الدين سواء قلنا بكفرهم كما هو قول بعض أهل العلم ، أو قلنا بأنهم أسوأ أهل البدع حالاً لقوله ﷺ : (( شر قتلى تحت أديم السماء ))<sup>(٢)</sup> ، فإنهم في الحالتين كلتيهما على خطرٍ عظيمٍ من ناحية انتمائهم للدين أقل ما فيه أنهم أصحاب بدعةٍ وشرٍّ وبلاء ، وأنهم مرقوا من الدين ببدعتهم تلك.

ومن عرف الخوارج وتاريخهم يدرك هذه الحقيقة فيهم وأنهم لا يرجعون عن غيهم وضلالهم حتى يكونوا حصيداً خامدين ، ثم يكون حسابهم في الآخرة حساب المبتدع الضال المحرف لدين الله المعتدي على عباد الله بغير وجه حق .

٣- إن التكفير ظلماً وعدواناً يعود على مطلقه ومتبنيه بالشر في نفسه ؛ لأنه يقطع نفسه عن كفره ، وكلما اتسعت دائرة تكفيره كلما اتسعت دائرة انعزاله عن المجتمع حتى يصبح ثقيلاً على المجتمع والمجتمع ثقيلٌ عليه ، فيقع فريسةً سهلةً للشيطان ، قال ﷺ : (( عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة ؛ فإن الشيطان مع الواحد ومن الاثنين أبعد ))<sup>(٣)</sup> فإذا صار وحيداً ساقه الشيطان إلى ما هو أكبر من التكفير ، من عداوة المجتمع ومفاصلته والارتباط بأمثاله من الغلاة والمنتنعين ، مما قد يسوقهم إلى أعمال لا يستسيغون فعلها وهم قلةٌ ضعفاء ، فإذا صاروا مجموعة كثيرة وصار لهم شوكة فلا تسأل عن هلكتهم . والتاريخ شاهدٌ بذلك .

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٣٤٤) ومسلم (١٠٦٤)

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٣٠٠٠) وقال الألباني صحيح

(٣) أخرجه الترمذي رقم (٢١٦٥) وقال الألباني صحيح

٤- إن التكفير ظلماً وعدواناً يُفقد صاحبه معية الله وهدايته ؛ إذ إنه واقعٌ في الظلم والاعتداء ومخالفة شرع الله ﷻ ودينه ، ومبتدعٌ ديناً ليس هو دين الإسلام الذي أنزله الله ﷻ ورضيه لعباده ؛ فإن الله أنزل تحريم الظلم ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ آل عمران: ٥٧ ، وقال ﷺ : (( إياكم والظلم ، فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة ))<sup>(١)</sup> ، وأوجب الحكم بالعدل ، ومن العدلِ البيئَةُ الشرعية ، قال تعالى : ﴿ تَوَلَّوْا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ النور: ١٣ .

لذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : ( والكلام في الناس يجب أن يكون بعلمٍ وعدل ، لا بجهلٍ وظلم كحال أهل البدع )<sup>(٢)</sup> ، وليس أعظم وأظلم من وصف إخوانه المسلمين بالكفر الموجب لإخراجهم من دائرة الأخوة الإسلامية ، والموجب التفريق بين المرء وأهله ، والحكم عليه بالتالي بالقتل لكفره وردته . فهذا من أعظم الظلم وأشنع ، وأشد الاعتداء وأقبحه .

فمن هنا صار المكفر لإخوانه فاقداً لمعية الله وهدايته ورحمته ، متحققاً بمعية الشيطان ورفقته وتسلطه ، قد ولّاه الله ما تولى ، وجعل وليه شياطين الإنس والجن ، ﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ الأنعام:

١٢٩ ، فمن أين تأتيه الهداية ومعية الكريم الرحمن والحالة تلك؟ .

٥- إن المكفر لغيره مبتدعٌ في دين الله ما ليس منه ؛ إذ إن التكفير له شروطٌ وضوابط في الشرع ، وليس أصحاب الأهواء في شيءٍ من ذلك .

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٥٧٨)

(٢) منهاج السنة النبوية (٤/٣٣٧) .

والمبتدع عمومًا ممن لا تُقبل منه أعماله الصالحة ، والمكفر من هذا الصنف ، لقوله ﷺ في المدينة : (( من أحدث فيها حدثًا أو آوى فيها محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً )) (١) والصرف الفرض والعدل النافلة (٢). فأغلق الله ﷻ في وجهه باب القبول ، واستحق ببدعته اللعنة من الله والملائكة والناس أجمعين .

يُصدّق هذا في أنه في عموم أهل البدع وليس خاصًا بمن ابتدع في المدينة كما هو منطوق الحديث السابق قول ابن عمر رضي الله عنهما في القدرية : ( والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهبًا ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر ) (٣).

والمكفرة الغلاة أعظم جرمًا وأشد خطرًا من القدرية ؛ فهم بالإضافة إلى ابتداعهم في دين الله معتدون على عباد الله بالتكفير ، وهذا ما أكده أهل العلم ، ومن ذلك قول أيوب السخيتاني: «ما ازداد صاحب بدعة اجتهادا إلا ازداد من الله بعدا» (٤) ؛ لأن المبتدع - نسأل الله المعافاة - لا يتوب من بدعته ، قال سفيان الثوري : ( البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها ) (٥) .

فلذا كان شؤم بدعة التكفير على صاحبها عظيمًا ، وآثارها عليه غايةً في الخطورة على دينه في الحال والمآل .

٦ - إن المكفر ظلمًا وعدوانًا مبتدعٌ دينًا غير دين الإسلام ، وبدعته من أسوأ البدع وأشرها عليه وعلى المسلمين .

(١) اخرجہ مسلم رقم (٨)

(٢) انظر شرح النووي على مسلم (١٤١/٩)

(٣) اخرجہ مسلم رقم (١٣٧٠)

(٤) اخرجہ أبو نعیم فی الحلیة (٩/٣)

(٥) اخرجہ أبو نعیم فی الحلیة (٢٦/٧)

إذ إنه جعل ما ليس بكفرٍ كفرًا بتكفيره من لا يوجب الشرع كفره ، واستبدل ما أوجب الشرع بين المسلمين من المحبة والتعاون والولاية بالعداوة والبغضاء والتقاطع والتدابير .

ولا يعرف في أهل البدع شرًّا من الخوارج والروافض ؛ لأن أسوأ انحرافاتهم وضلالهم إنما هو إعراضهم عن الشرع في واجب الأخوة الإسلامية ، والاعتداء على حقوق المسلمين ، والبغض والعداوة لهم ، لذا قال ﷺ في وصفهم : (( يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان ))<sup>(١)</sup> ، ولا شك أن قتلهم لأهل الإسلام إنما هو بمبرر التكفير ، ليس له موجبٌ إلا ذلك ، ولا يُعرف هذا إلا في هاتين الطائفتين الروافض والخوارج .

فمن كفر المسلمين ظلماً وعدواناً فقد وقع في شر البدع وأفسدها ؛ لأنه فوق ابتداعه في نفسه وانحرافه عن الدين في نفسه صار معتدياً على إخوانه المسلمين في بدعته وضلالته لتعلقها بالمسلمين دون غيرهم .

### ثانياً : آثار التكفير على الأمة :

لما تعلق التكفير ظلماً وعدواناً بالأفراد من المسلمين صار له مردودٌ سيءٌ على الأمة كلها ، وعلى مجتمع المكفر الأقرب فالأقرب ، وهذه الآثار تتمثل فيما يلي:

#### ١ - آثاره على تكفير أهله وأقاربه :

لما كان التكفير ظلماً وعدواناً ليس مبنياً على نصوصٍ شرعيةٍ واضحةٍ يكون وسيلةً لإطلاقه على كل مخالفٍ رأى المكفر أن مخالفته كفرًا مع أن ذلك في أصل الشرع لم يترك بدون ضوابط شرعية لضبطه لخطورته ، فإذا خالف الأهل سواءً الوالدين أو الأخوة أو أحد أقارب هذا المكفر الغالي فإنه سيطلق عليهم التكفير،

(١) أخرجه البخاري رقم (٣٣٤٤) ومسلم (١٠٦٤)

فيكون ذلك سبباً في عقوبه لوالديه وقطيعة لأرحامه بلا مبرر شرعي ، وسيكون الجفاء متبادلاً بين المكفر ومن كفرهم ظلماً وعدواناً ، فلا هو يتحملهم ويستطيع العيش معهم ، ولا هم يتحملونه ويقبلون التعامل معه وهم يعلمون أنه يراهم كفاراً خارجين من الملة .

فيكون ذلك سبباً في تدمير الأسرة وتشتيت كيانها ووقوع بعضهم في بعض . وهذا أمرٌ مشاهدٌ من هؤلاء المكفرين ، فإنه إذا وقع أحدهم في التكفير فسرعان ما يخرج من بيته الساعات الطوال ، يأوي فيها إلى أمثاله في الفكر المتطرف ، أو سرعان ما يلتحق بالتكفيريين المفاصلين للمجتمعات الإسلامية ، ويلبس دروع الحرب على أهله وبني قومه - نسأل الله العافية - .

فكيف استطاع الشيطان أن يقلب تدين هذا الشاب هذا الإنسان ليكون سبباً في شقائه وشقاء من حوله من أهله وأسرته ؟

لهذا كان من قول الشافعي رحمه الله : ( لأن يلقى الله العبد بكل ذنبٍ ما خلا الشرك بالله خيرٌ له من أن يلقاه بشيءٍ من الأهواء )<sup>(١)</sup> .

ومن أشر الأهواء وأفسدها في علاقة المسلم بربه وعلاقته بعموم المسلمين بدعة التكفير ؛ فهي تفسد حاله في بيته وأسرته ، وتفسد علاقتهم به وعلاقته بهم ؛ فيكون بذلك عاقاً لوالديه ، قاطعاً لرحمه ، وإلا سيؤول فيما بعد إلى ذلك .

## ٢- آثاره على الأمة في تكفير العلماء :

إن المكفرين هم أشد المبتدعة وقاحةً وفجاجة ، ويكفي في الدلالة على ذلك قول مقدمهم للنبي ﷺ : ( يا محمد اتق الله )<sup>(٢)</sup> ، وفي رواية أنه قال: يا محمد،

اعدل . قال ﷺ : ((ويحك، ومن يعدل عليك إذا لم أعدل))<sup>(١)</sup> .

(١) اخرجهُ أبو نعيم في الحلية (١١١/٩)

(٢) اخرجهُ البخاري رقم (٧٤٣٢) ومسلم (١٠٦٤)

فمن فضاضته وغلاظته واجه هذا الرجل محتسباً رسول الله ﷺ بذلك الكلام  
الظالم الباغي والطلب الخائب .

ونحوه موقفهم من ابن عباس ؓ لما جاءهم رسلاً من عليّ ؓ لينظرهم وينظر  
مطالبهم ، قام خطيبهم فقال: " يا حملة القرآن هذا عبد الله بن عباس فمن لم  
يكن يعرفه فأنا أعرفه ممن يخاصم في كتاب الله بما لا يعرفه، هذا ممن نزل فيه وفي  
قومه ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ الزخرف: ٥٨ ، فردوه إلى صاحبه ولا تواضعوه  
كتاب الله" (٢) ، فانظر كيف موقفهم من حبر الأمة الذي قال فيه النبي ﷺ : ((  
اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)) (٣).

فهم لا يرعون حرمةً لأحد ، ولذا نجدهم يكفرون العلماء ، ويصفونهم بأوصافٍ  
تخط من قدرهم ، فيقولون عنهم علماء السلطان ، علماء الحيض والنفاس ، لا  
يفهمون الواقع ، بل ويكفرونهم ويطعنون في صحة دينهم .  
وهذا من أعظم الجناية على الأمة ، أن يُطعن في علمائها الذين هم قادة الدين  
والفكر ، فلا يثق الأفراد بهم ، وتضيع عليهم بهم القدوة ، ولا يقبلون تعليمهم  
وفتواهم .

فإذا حصل ذلك فلا تسأل عن الشر الذي سيحيط بالناس من ناحية دينية ،  
لأنه إذا لم يُقبل قول أهل العلم في الدين فمعنى ذلك أن العامة سيذهبون  
للجهلاء يتخذونهم رؤوساً فيضلون ويضلون ، فيكون ذلك من أعظم الشر على  
الناس ؛ فالعلماء هم الهداة على بصيرة ، والدعاة إلى البصيرة في الدين كما قال  
تعالى : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک رقم (٢٦٤٤)

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٢٨٠/٧)

(٣) أخرجه الامام أحمد المسند رقم (٢٨٧٩)

يوسف: ١٠٨ ، وهم ملاذ الناس عند اختلاط الأمور وبهم تتضح السبيل والجادة،

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهٖ ۗ وَلَوْ رَدُّوهُ

إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أَوْلَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا

فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَتَهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿ النساء: ٨٣ .

فإما اتباع العلماء وأهل الفقه في الدين أو اتباع الشيطان وأهل البدعة والفساد.

والعلماء هم الذين يستشرفون المستقبل ، ويتبصرون في المآلات ، ويحكمون على

المقدمات ، فينبهون الناس ويحذرونهم مما قد يلهم بهم ، ويعرفون الأمور بمقدماتها ،

فهم ملاذ الناس في ذلك ، قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ

طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ

يَحْذَرُونَ ﴿ التوبة: ١٢٢ ، يحذرون الناس من الباطل الواقع والباطل المتوقع

ليكون الناس على بينة في دينهم .

والعلماء هم المستشارون الأمناء لولاة الأمر وحكام المسلمين ، لهذا قال الله

تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ آل عمران: ١٥٩ ، وأحقُّ الناس

بالاستشارة هم العلماء ، لذا كان القراء أصحاب مجالس عمر ﷺ ومشاورته،

كهولاً كانوا أو شباناً»<sup>(١)</sup>، ولا نجد خليفة إلا وله من أهل العلم مستشارين ، بل

وجل حكام المسلمين لهم من أهل العلم مستشارين .

فإذا سُجِبَ البساط من تحت هذه الطبقة الرفيعة في المجتمع وذات الدور الفاعل،

فمن يؤدي دورهم ويقوم بمهمتهم ؟

(١) صحيح البخاري رقم (٤٦٤٢)



فإذا تعمَّد التكفيري الطعن فيهم وتكفيرهم فقد سعى إلى إطفاء النور الذي يضيء حياة الناس وينير لهم السبيل ويهديهم الطريق لأنهم ورثة الأنبياء ، والمكلفون من قِبَلِ اللَّهِ ﷺ بتعليم الناس دينهم ودعوتهم إلى الحق ، قال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾

آل عمران: ١٨٧، وهم منارات الطريق وهداته ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (فيجب على المسلمين موالاة الله ورسوله وموالاة المؤمنين كما نطق به القرآن خصوصاً العلماء الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يُهتدى بهم في ظلمات البر والبحر ، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، إذ كل أمة قبل مبعث محمد ﷺ فعلماءؤها شرارها ، إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم ؛ فإنهم خلفاء الرسول ﷺ في أمته ، والمخيون لما مات من سنته، بهم قام الكتاب وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا)<sup>(١)</sup>.

فمن طعن فيهم وكفرهم فقد أراد أن يجرم الناس من الخير الذي لا يوجد إلا عندهم ، وأراد أن يصرف وجوه الناس عنهم إليه حتى لا يعرفوا ضلالتهم ويبيعوه على ضلالتهم ، إذ ليس هناك من يُحذّر من ضلالتهم ، فيقع من الشر بذلك ما لا يعلم مداه إلا الله ، ويلتبس الحق بالباطل ، ويكون الناس بغير هُدَاةٍ نسأل الله المعافاة .

### ٣- آثاره على الأمة بتكفير الولاة :

إن ولع التكفيريين بالطعن في الولاة وتكفيرهم دأب هذه الفئة من أولهم إلى

آخرهم.

فقد طعن مقدمهم في رسول الله ﷺ كما سبق ذكره .

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام ( ص ٨ ) .

وكان هذا موقفهم من علي عليه السلام وهو رابع الخلفاء الراشدين وخير الناس في زمانه ، ومع ذلك لم يتورعوا عن تكفيره ، وقالوا له في وجهه : " حكمت في دين الله الرجال" <sup>(١)</sup> وكفروه بذلك ثم قتلوه بغضاً له وتقرّباً إلى الله وعلي بدمه نسأل الله المعافاة .

واستمر هذا دأبهم مع سائر الخلفاء والأمراء إلى عصرنا الحاضر .

وتكفير من أشد آثار التكفير خطراً على الأمة ؛ لأن الولاة هم رأس الهرم للأمة وحماها بعد الله عز وجل ، وهم من بيدهم مقاليد الأمور في هذه الحياة ، وهم الذين يسوسون حياة الناس ويوجهونهم ، فمن كفرهم بأمر ليس من الكفر البواح كما قال الرسول عليه السلام في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه فقد أتى عظيماً واجترح إثماً كبيراً ، وفتح على الناس من الشر ما لا يعلم مداه إلا الله وعلي ، وذلك لأمر منها:

١ - أن الله وعلي أمر بطاعتهم في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ النساء: ٥٩ .

وقال عليه السلام : (( من يطع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعص الأمير فقد عصاني )) <sup>(٢)</sup> ، ومن كفرهم فقد منع من طاعتهم التي هي مناط صلاح حال الناس وانتظام معاشهم ، وحفظ أمنهم ومكاسبهم ، وخالف بذلك أمر الله وعلي ورسوله عليه السلام .

٢ - أن الرسول عليه السلام حرّم الكلام فيهم والظعن فيهم فضلاً عن تكفيرهم ، قال عليه السلام : (( من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر ، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات فميتة جاهلية )) <sup>(٣)</sup> ، فأوجب الصبر على ما يكرهه الإنسان المسلم مما

(١) تاريخ الاسلام للذهبي (٣/١٧٤) .

(٢) اخرج البخاري رقم (٢٩٥٧) ومسلم (١٨٣٥)

(٣) اخرج البخاري رقم (٧٠٥٤) ومسلم (١٨٤٩)

قد يقع فيه الأمير من المخالفات الشرعية أو السياسية أو الشخصية ، وفي التكفير والطعن فيهم منافاةً لذلك .

٣- أن الرسول ﷺ حرم الخروج عليهم ، قال ﷺ: (( من خرج من الطاعة وفارق الجماعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتةً جاهلية ))<sup>(١)</sup>.

وتكفير الولاية والأمراء فيه تحفيزٌ وحضٌ واضح على الخروج ، وفي الخروج على الولاية من الشرور ما لا يعلم مداه إلا الله ﷻ ؛ فإن القوة الموجودة ستتصادم لمحاولة أن يسقط أحدهما الآخر ، قوة الأمير الحاكم وهي القوة العسكرية والقوة النفسية ، وقوة الشعب والأمة وهي قوة الكثرة والاندفاع ، فإذا تصادمت القوتان فنيتا ، وهذا أمر مشاهدٌ معلومٌ في الأحداث الواقعية ، فهذا الصومال أكبر شاهدٍ على ذلك وفيه العبرة وكيف آل حالهم إلى شر حال من بين الدول الإسلامية ، وهذا حال سوريا وحال ليبيا وحال اليمن ، كلها يضرب بعضٌ رقاب بعض ، وقد انفلت الحبل ، والكل صار يضرب الكل وليس لهم ضابطٌ ولا رابط ، فمن كفر الولاية فإنما أراد في حقيقة الحال أن تقع الأمة في مستنقع التقاطع والتدابير والتناحر والتقاتل ثم الفناء وذهاب الريح .

٤- أن في ذلك فتح الباب لأعداء الأمة للتدخل في شؤونها وربما السيطرة عليها وإسقاطها والاستيلاء على مقدراتها ؛ لأنه متى كان الناس مجتمعين ، كلمتهم واحدة ورايتهم واحدة ، فذلك عنوان قوتهم ، وغیظ عدوهم ، وقوة شكيمتهم ، أما إذا تفرقوا وبدأ يضرب بعضهم بعضاً ويكيد بعضهم بعضاً فإن أعداء الأمة والمتربصين بها كثير ، فيهم العدو الداخلي والعدو الخارجي ، وقد يتفقدان من منطلق العداوة للأمة فيستولون على البلاد ، ويعيثون في الأرض الفساد ،

(١) أخرجه مسلم رقم (١٨٥١)

ويفسدون دنيا الناس ودينهم ، ولنا في حال العراق عبرة وعظة لما سقط رئيسه استولى عليه أعداء الأمة ، ولنا في حال اليمن عبرة ودرس آخر فقد أسقطوا حاكمهم ثم تسلط عليهم مرتزقة الحوثية ، وها هم يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، ويعادون جميع أطراف الأمة إلا من احتاجوا إليه أو أرادوا المكر به فصانعه ، ولنا في حال ليبيا معتبر كذلك حيث قاموا على حاكمهم ثم حلّ بهم البوار أو كادوا فقتل منهم خلال خروجهم الألوفاً ، ثم عادوا على بعضهم يقتتلون ولا زالت البلاد لمن غلب ، والعدو متربص والله أعلم بما يمكنون ويحكون .

فهذه الأمثلة الحاضرة في العيان ، وأمام بصر العالم والجاهل ، وهذه نتائجها ، أفلا يتعقل مسلمٌ ويلتزم التوجيه النبوي ويعلم أنه فاتحٌ على نفسه وأمته شرّاً قد لا يُغلق إلا وقد أخذ من دين الناس وديناهم ما لا يمكن أن يكون موازياً لظلم الحاكم الظالم قبل الخروج عليه ولا فجوره ، لذا حذر السلف من ذلك تحذير من علم علم اليقين بصحة الدليل الشرعي على تحريم الخروج ، وشهادة الواقع على أن فسادة على الأمة محيطٌ بما كلفها ، قال الحسن البصري رحمه الله : "والله لو أن الناس إذا ابتلوا من قبل سلطانهم صبروا ما لبثوا أن يرفع الله ذلك عنهم، وذلك أنهم يفرعون إلى السيف فيؤكلوا إليه، والله ما جاءوا بيوم خير قط، ثم تلا: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ، وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ الأعراف: ١٣٧ (١) .

ولما جاء جماعة من أهل بغداد يظهرون عدم الصبر على القول بخلق القرآن ووجوب القيام ضد الخليفة بسبب ذلك - قال لهم :فما تريدون؟ قالوا: نشاورك في أنا لسنا نرضى بإمرته، ولا سلطانه، فناظرهم أبو عبد الله ساعة، وقال لهم: "عليكم بالنكرة بقلوبكم، ولا تخلعوا يدا من طاعة، ولا تشقوا عصا المسلمين،

(١) اخرجهُ الأجرى فى الشريعة ( ٣٧٣/١ )

ولا تسفكوا دماءكم ودماء المسلمين معكم، انظروا في عاقبة أمركم، واصبروا حتى يستريح بر، أو يستراح من فاجر" (١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : ( وقلّ من خرج على إمامٍ ذي سلطان إلا كان ما تولّد عن فعله من الشر أعظم مما تولّد من الخير ) (٢).

وقال ابن القيم رحمه الله : ( فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله ، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم ؛ فإنه أساس كل شرٍّ وفتنة إلى آخر الدهر . ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل ، وعدم الصبر على منكره ، فطلب إزالته فتولد منه ما هو أكبر منه ) (٣) .

فهذا من أخطر آثار تكفير الولاة ؛ حيث يفتح أبوابًا من الشرور لا تُقارن بحالٍ مع الشر الذي كان هو فيه .

#### رابعًا : آثار التكفير على الدين :

إن الله قد أنزل دينه بحكمةٍ وعلم ، فكل أمرٍ شرعيٍّ أو نهيٍّ شرعيٍّ إنما شرعه الله لحكمةٍ عظيمة ، وحين حرّم الشارع الحكيم التكفير بالباطل إنما حرّمه لحكمةٍ عظيمة تعود على الأمة كلها وعلى أهل الإسلام عمومًا ، ومن يقع في حماة التكفير بغيًا وعدوًا فإنه يضر بنفسه وأمته ودينه ، ومن إضراره بدين الله ﷻ :

١ - الإضرار بسمعة الإسلام :

(١) أخرجه الخلال في السنة ( ١٣٣/١ )

(٢) منهاج السنة النبوية (٥٢٨/٤)

(٣) أعلام الموقعين (١٢/٣)

إن غير المسلمين لا يعرفون الإسلام إلا من خلال ممارسات أهله وأتباعه ، فإذا رأى الكافر المسلمين يكفر بعضهم بعضاً ، فإن ذلك عنده سيكون دليلاً على أمرين :

- إما أنه دينٌ غير منضبط في قواعده وأصوله ، فمن دخله لا يأمن أن يقع في أمرٍ من المخالفات الشرعية أو مما لا يتوافق فيها مع مخالفه فينبزه بهذه الوصمة الشنيعة ، ويخرجه من الدين وهو جاء راغباً فيه راغباً عما كان عليه من الكفر ، وهذا منقراً شديداً له ، ودافعٌ له للإحجام عن الدين .

- وإما أنه دينٌ لم يضبط سلوك أتباعه ، وأن من دخله لا يجد فيه من التوجيهات والتأديب ما يجعل أتباعه يرحم بعضهم بعضاً ، ويحسن بعضهم إلى بعض ، وإنما فيه عكس ذلك من التدابر والتقاطع والتخاصم والتفرق بل والتقاتل والتناحر .

فيكون في ذلك صدُّ واضحٌ عن دين الإسلام ، لهذا روي عن النبي ﷺ أنه قال: ((إنكم لا تسعون الناس بأموالكم وليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق))<sup>(١)</sup>.

فهي المعاني الظاهرة للناس ، وهي التي يحتاجها المسلم وغير المسلم من المسلم ، وهي التي تُظهر حقيقة الدين لدى أهله ، وليس الدعاوى الكلامية ، لهذا أسلمت أممٌ كثيرة في شرق آسيا وفي أفريقيا لم تصلها الجيوش الإسلامية ولم تطأها أقدامهم ولم تطأ أرضها أقدامهم ، وإنما وصلها مسلمون كانوا دعاءً إلى الله بسلوكهم وأخلاقهم ، فأثمر ذلك دخول أمم لا يحصيهم إلا الله في الإسلام بدون أن يراق دمٌ أو يشهر سيف.

لذا كان مما علّمنا ربُّنا من الدعاء : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الممتحنة: ٥ ، قال بعض أهل التفسير : (اصرف عنا ما يكون به اختلال أمرنا وسوء الأحوال كيلا

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک رقم (٤٢٨)

يكون شيء من ذلك فاتنا الذين كفروا، أي مقويا فنتهم فيفتنوا في دينهم، أي يزدادوا كفرا وهو فتنة في الدين، أي فيظنوا أنا على الباطل وأنهم على الحق<sup>(١)</sup>.

٢- استغلال الأعداء ذلك للتنفير من الإسلام :

إن أعداء الإسلام يكدون أذهانهم وينفقون أموالهم في الصد عن سبيل الله ، وليس هناك وسيلة أكثر تأثيراً من تشويه صورة الإسلام ، وأهل التكفير بالباطل في حقيقة حالهم لا يتوقف أمرهم عند التكفير ، بل يلحقون ذلك بما هو أشد من ذلك ، وهو القتل والتدمير والتفجير ، وهذا ما يجعل أعداء الإسلام يجدون في ذلك الحجة والدليل لتشويه صورة الإسلام ، ووصفه بالدين الدموي ، وبالدين الإرهابي ، والدين الذي يفتك بأصحابه قبل أعدائه ، ويدمر أهله أنفسهم قبل غيرهم ، وكل ذلك حاصل في هذا الوقت بأوسع نطاق من قبل أعداء الله ، حتى أنهم يتجاوزون ذلك إلى أن هذا هو حقيقة دين الإسلام ، وأن هذه هي حقيقة رسوله سيد الأنام ﷺ ، وأن الدين إنما قام بالسيف والإرهاب لا بالحجة والإقناع .

وهذا ما كان يحذرهُ ﷺ حين قيل له في رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول بأن يقتله ، قال : (( لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ))<sup>(٢)</sup> ، عبد الله بن أبي بن سلول ليس من أصحاب النبي محمد ﷺ ، وهو منافق كافر ، ولكن الصورة التي سُنتشر في حال قتله أنه من أصحاب الرسول ﷺ فهذا محمد ﷺ يقتل أصحابه .

فملاحظة لسمعة الإسلام وأن لا يتخذ أعداء الإسلام إقامة الحكم الشرعي والواجب الشرعي وسيلة للصد عن دين الله ﷻ ترك نبينا ﷺ قتل المنافقين لما يعلمه ﷺ من أن ذلك سيكون من أهم وسائل أعداء الله للصد عن دين الله ﷻ .

(١) التحرير والتنوير ، ابن عاشور (٢٨ / ١٤٨) .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٤٩٠٥) ومسلم رقم (٢٥٨٤) .

٣- أن التكفير بالباطل وسيلةٌ لمنع الدعوة إلى الإسلام .

إن الدعوة إلى الإسلام هي من أعظم مهام المسلمين تجاه البشرية عمومًا ، وكل سببٍ يحول دون تحقيق هذا الهدف العظيم والعمل الشريف فهو لا شك سببٌ محرّم ، وإن مما ابتلينا به في عصرنا تسلط الأعداء وقوة شكيمتهم وضعف المسلمين وتفرقهم ، وزاد الأمر سوءًا قيام طائفةٍ من أهل الغلو والانحراف بالتكفير للمسلمين بالباطل ، وركوب أهوائهم في التعامل مع الكفار بدون ضوابط الشرع ومراعاة مصالح الأمة ، فقاموا بالتفجير في بلاد المسلمين ، وبعض ذلك كان ضد الكفار بل وفي بعض الأحيان في بلدانهم ، مما جعل الكفار يتكالبون على الإسلام ويتهمون أهله بالإرهاب ، ويتهمون الدعاة بالأخص والناشطين في مجال الدعوة بذلك ، ويسعون متكاتفين لإغلاق المنافذ الدعوية لدعاة أهل السنة ، والتضييق على الأعمال الخيرية والإغائية من قِبَل المسلمين ، وبسبب هذا الأمر أُغلقت كثيرٌ من مراكز الدعوة ، وحُجِّمت أنشطة الدعوة بعد أن جُعِلوا ضمن دائرة الاتهام ، وفُتِح الباب على مصراعيه للمؤسسات التنصيرية والبدعية لتحل محل دعاة أهل السنة ، مما حرّم المسلمين من أداء الواجب الملقى على عواتقهم للبشرية عمومًا ولإخوانهم المسلمين ممن هم محتاجون للأنشطة الدعوية لتعليمهم وتثبيتهم على المنهج الحق .

كل ذلك حدث بسبب أهل الغلو والتطرف من التكفيريين والتفجيريين .

وهذا من أخطر آثار التكفير على مستوى الأمة الإسلامية عمومًا بل وعلى مستوى العالم .



وقد حرّم الإسلام كل سبٍ يوصل إلى حجب خيرٍ أو فتح باب شر حتى لو كان الأمر مباحًا ، فكيف إذا كان محرّمًا ؟ ، قال ﷺ : ((إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً، من سأل عن شيءٍ لم يحرم على المسلمين، فحرم عليهم من أجل مسألته))<sup>(١)</sup> .  
فهذا من أعظم المسلمين جرماً وهو لم يفعل سوى أنه سأل عن أمرٍ من أمور دينه ، فكيف بمن كان معتدياً مبتدعاً مفسداً مفتاتاً على المسلمين ومشوّهاً لصورتهم وسمعتهم وسمعة دينهم ؟. نسأل الله لنا وللمسلمين المعافاة من فتنة التكفير فهي من شر الفتن وأكثرها خطورة على دين المسلم وحياة المسلمين ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

كتبه أ.د : سعود بن عبدالعزيز الخلف  
أستاذ العقيدة في كلية الدعوة وأصول الدين  
بالجامعة الإسلامية بالمدينة وعضو جمعية "عقيدة"

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٣٥٨)